وسئل رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم

فى عدد الرسل

أرسل الله سبحانه وتعالى إلى بنى البشر رسلا من أنفسهم ليرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

والأنبياء والرسل كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله ، والواجب الإيمان إجمالاً بأن لله أنبياء ورسلا كثيرين لا يعلمهم إلا هو كما قال تعالى :

(منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) .

ويجب علينا أن نؤمن تفصيلا بخمسة وعشرين رسولا وهم المذكورون فى القرآن الكريم ، وقد جمعهم علماء التوحيد فى بيتين من الشعر :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وقد ورد فى ذلك أحاديث ضعيفة والمشهور منها ما رواه ابن مردويه عن أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا » .

قلت يا رسول الله : كم الرسل منهم ؟ قال « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير »

هذا والله أعلم بعدتهم كما ورد فى الآية السابقة ..

فى لماذا اختار الله الجزيرة العربية للرسالة المحمدية ؟

(إن أول بيت وضع للناس لَلَّذى ببكة مباركاً)

وهذا البيت كان قبل إبراهيم عليه السلام .. وإبراهيم عليه السلام إنما رفع قواعده التى كانت موجودة من قبل ..

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

وكما كان أول بيت للعبادة فإنه فى التقدير الأزلى آخر بيت لله تقام فيه العبادة على الوجه الصحيح الصادق ..

ولقد اختار الله تعالى الجزيرة العربية للرسالة المحمدية لأن بها بيته هذا المحرم ملتقى الحجيج من كل جانب . من جوانب الأرض ، ولأن أهلها كانوا حينئذٍ أحسن الناس استعداداً لحمل رسالة الله ... ولو أن الرسالة كانت فى غير جزيرة العرب لما وجدت آذاناً مصغية .. ولا قلوباً واعية .. ذلك أن الروم كانوا أهل دين يصعب عليهم تركه إلى دين آخر ، والفرس كانوا ذوى ملك وسلطان . يرون فيها العزة والمتعة ، ولا يمكن أن يدينوا معها بدين آخر من أبرز ما فيه تغيير العقيدة وتغيير الأنظمة وإزالة الطغيان الذى كان سمة كثيرين من الملوك والأمراء .. لذلك كانت الجزيرة العربية المكان الصالح لنشر الدعوة المحمدية لأن أهلها كانوا بفطرتهم وعدم اعتناقهم أىّ دين من الأديان التى كانت موجودة حينئذ مهيئين لقبول الرسالة وحملها ..

ولقد رفض اليهود الإسلام بالمدينة . وما حولها وهم يعلمون تمام العلم صفة رسول الله ﷺ فى كتابهم .. ولكن خوفهم من ذهاب السلطان جعلهم يجحدون .. وأصحاب السلطان فى الفرس والروم لا شك كانوا يرفضون الدين الجديد خوفاً من زوال سلطانهم ..

فى ما يقال بأن سيدنا محمد ﷺ هو أول مخلوق فأين كان حينما كان آدم وحواء فى الجنة ؟

فى كتاب « حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين » للنبهانى « فى خلق نوره ﷺ وانتقاله من أصلاب أجداده الطاهرين » قال الحافظ أبو على الحسن بن على بن عبد الملك الرهونى المعروف بابن القطان فى كتابه البشائر والأعلام لسياق ما لسيدنا ومولانا محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام من الآيات البينات والمعجزات الباهرات :

كان من أول ما ظهر من آياته ﷺ قبل البدء ما رواه على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله ﷺ : كنت نوراً بين يدى ربى عز وجل قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام .

وفى حديث آخر : كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين .

ولعل المراد أنه كان نبيًّا فى علم الله سبحانه وتعالى .

وكان ﷺ حينما كان آدم وحواء فى الجنة ، فى صلب آدم .

وكما ورد فى الحديث الشريف خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدتنى أمى لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء .

والرأى السليم الصحيح فى كل هذا هو أن النبى ﷺ ولد ولادة طبيعية عادية وليس فى أمر خلقه خوارق عادات والأحاديث التى تتحدث عن خلقه ﷺ قبل خلق آدم لا أساس لها من الصحة وليس الأمر أمر أولية فى الخلق فليس فى أولية الخلق أساس للتفاضل أو التفضيل وإنما أساس الفضل والتفضيل هو التقوى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وهو الخلق الحسن ولقد كان رسول الله ﷺ على أعلى مستوى أخلاقى وهو الذى قال سبحانه وتعالى فيه : (وإنك لعلى خلق عظيم) وهو القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولقد وصفت السيدة عائشة رضوان الله عليها خلقه فقالت « كان خلقه القرآن » ولقد وصل ﷺ القمة فى الإخلاص السامى وفى السمو الأخلاقى بقول الله تعالى له :

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين) ﷺ ..

روى الإمام أحمد بسنده عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : قال لى النبى ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته » ...

وروى أحمد بسنده عن ميسرة قال : قلت يا رسول الله ... متى كنت نبيًّا ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد ..

رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

وهذان الحديثان لا يدلان على أنه ﷺ أول مخلوق ، وإنما يدلان على أن نبوته ثابتة من القديم وأن الله سبحانه وتعالى كتبها وقدرها وتم بها ما أراد .

أما كونه ﷺ أول مخلوق فيحتاج إلى ما يدل عليه من الآثار الصحيحة ..

وأولية الخلق لا تستلزم تفضيلا ولا تشريفاً .. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى رتب بعض الأشياء على بعض فى الوجود ، ولم يجعل السبب بأفضل مما يترتب عليه من المسببات .

أما كونه ﷺ أحب مخلوق إلى الله .. فهذا مما لا يمكن أن يشك فيه .. والقرآن الكريم يشير إلى ذلك فى كثير من الآيات .. إنه ﷺ رحمة للعالمين قال تعالى :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وهو ﷺ خاتم الأنبياء قال تعالى :

(ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأتم نعمته عليه وهداه صراطاً ونصره الله نصراً عزيزاً واختصه بالشفاعة العظمى التى يتقاصر دونها مشاهير الأنبياء .

وببركته ﷺ رفع العذاب عن أهل الأرض ولم يهلكهم الله فى الدنيا بكفرهم أو من عنادهم قال تعالى :

(وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون)

وامتثالا منه ﷺ لقوله تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) تحدث عن كثير من هذه النعم ، وعن تكريم الله تعالى له وتفضيله له على كل خلقه .. قال ﷺ :

« لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعى .. وقال :

أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة .. رواه مسلم وقال :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع » – رواه مسلم وأبو داود ...

وقال :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر» رواه أحمد والترمذى وابن ماجه . .

وفضائله ﷺ كثيرة والأدلة على كونه أحب الخلق إلى الله عديدة نفعنا الله باتباعه ورزقنا حبه وحب من يحبه وجعلنا من جنوده الصادقين ..

أما لماذا ؟ فذلك أنه ﷺ أخلص نفسه لله سبحانه وتعالى إخلاصاً كاملا .

ومعنى كونه أول المسلمين : إنه أول المسلمين فى كل فضل وفى كل خير وفى كل مكرمة ولأجل ذلك كان أحب خلق الله إلى الله .

وألقى بنفسه إلقاء كاملا فى الرحاب الإلهى مستجيباً إلى الله فى كل ما أمر منتهياً عن كل ما نهى ولقد حقق صلوات الله وسلامه عليه قوله تعالى :

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

فى النسب الشريف

الصحيح من نسب رسول الله ﷺ أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

أما ما بعد عدنان من الأسماء فإنه لا يقين فيه .

والذى صح عن رسول الله ﷺ أنه انتسب إلى عدنان لم يتجاوز .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بلغ فى ذكر نسبه إلى عدنان قال : «كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً» .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال إنما ننتسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندرى ما هو ، أما مسألة أن النسب الشريف ينتهى حقًا إلى سيدنا إبراهيم فقد روى فى ذلك الإمام البخارى حديثاً « صحيحاً » عن واثلة بن الأسفع: قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة . واصطفى من بنى كنانة قريشاً . واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » .

ويلاحظ أن هذا الحديث الشريف لم يذكر سلسلة النسب من إسماعيل عليه السلام إلى بنى كنانة ولكنه يؤكد أن النسب الشريف ينتهى إلى إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام وليس فى ذلك استحالة عقلية وليس هناك من التاريخ اليقينى ما ينفى ذلك وبقى الحديث صحيحاً وأن نسبه ﷺ ينتهى إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام .

فى حكمة إرسال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

يقول الله تعالى معبراً عن الحكمة فى إرسال سيد الخلق ﷺ :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

ومن دعاء سيدنا إبراهيم ، وسيدنا إسماعيل ، وهما يرفعان القواعد من البيت (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) .

من هذه الآيات ، ومن غيرها : نعلم أن الحكمة فى إرسال الرسل ، إنما هى تبليغ آيات الله ، أى تعاليمه وأحكامه وتكاليفه إلى بنى البشر ، إن الله سبحانه وتعالى : لم يرد أن يترك البشر دون هداية فى الأمور الأساسية لبناء المجتمع وهى : العقيدة ، والأخلاق ، والتشريع ، فأرسل لأهل الأرض الدستور السماوى الذى يؤدى اتباعه والعمل به ، إلى تزكية النفس وتطهيرها وصفائها .

فالأديان والرسل إنما كانوا لبيان الأسس والقواعد التى لا يقوم المجتمع الصالح بدونها ، وكانوا

أيضاً لمصلحة الفرد التى تتمثل فى الارتفاع به إلى مستوى التزكية والطهر والصفاء وهو مستوى يجد فيه من يحققه السعادة كل السعادة والبهجة كل البهجة . ويشعر من يرتق فى معارجه منغمساً فى نور هداية الله سبحانه بالسكينة تحيط به وبالطمأنينة تملأ جميع أقطاره ويشعر فوق كل ذلك رضوان من الله أكبر . حكمة إرسال الرسل إذن إنما هى إسعاد المجتمع وإسعاد الفرد والرقى بها إلى المستوى الذى يرضاه الله لها وهو المستوى الربانى .

بيد أن الإنسانية ابتعدت شيئاً فشيئاً عن الأديان والرسالات ، فأخذت تشق بنسبة هذا الابتعاد أفراداً وجماعات ، وأخذت فى تدمير بعضها بعضاً وتنكيل بعضها بالبعض الآخر ولو عادت إلى الله لسعدت أفراداً ولسعدت جماعات ، وباب السعادة مفتوح ورحمة الله لن تضيق بمريد مخلص ، وعلى كل فرد إذا أراد الخير لنفسه وللإنسانية أن يتمسك وأن يدعو إلى التمسك بهدى السماء ، ففى ذلك سعادته وسعادة المجتمع .

فى معجزة النبى فى الأميّة

رسولنا محمد ﷺ ، كان أميًّا لم يعرف القراءة والكتابة وهذه معجزة له إذ إنه جاء بالقرآن الذى أعجز العرب الفصحاء البلغاء وهم أهل القراءة والكتابة مع كونه أميًّا ، وهذا دليل على أنه من عند الله ..

وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله :

(وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطُّهُ بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

وفى سورة الأعراف قوله تعالى :

(الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) .

فى خُلق الرسول ﷺ

سُئلت السيدة عائشة رضوان الله عليها عن خُلق رسول الله صلوات الله عليه فقالت : كان خُلقه القرآن . والقرآن كان يتحدث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه حديثاً مباشراً أو كان يرسم المبادئ ويضع القواعد فى العقيدة والأخلاق ويصور فى الوقت نفسه الطريق الذى كان يسير عليه السراج المنير الرءوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه ، فالقرآن إذن المصدرُ الأول الذى تستمد منه صفات الرسول وأخلاقه ﷺ .

والمصدر الثانى هو كتب الأحاديث الصحيحة وخيرها صحيح البخارى يليه صحيح مسلم وكل كتاب من كتب الأحاديث على وجه العموم يخصص قسماً منه لصفات الرسول وأخباره ثم يأتى فى المرتبة الثالثة كتب السيرة القديم منها والحديث .

ومن خير كتب السيرة القديمة سيرة ابن هشام ، ولقد طبعت طبعات مختلفة محققة مع شرح الكلمات الصعبة . ومن خير الكتب القديمة والحديثة كتاب الأنوار المحمدية للعارف بالله يوسف النبهانى .

أما الكتب الحديثة فإن من خيرها كتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل وقد نال هذا الكتاب إقبالا يستحقه وقد توالت طبعاته ولا تزال تتوالى وتجد رواجاً كبيراً هى أهل له ومنها كتاب « محمد رسول الله » . وهو كتاب مترجم عن الفرنسية كتبه أحد كبار مفكرى الفرنسيين بعد أن هداه الله للإسلام وبعد أن حج بيت الله الحرام معتمداً على المصادر الإسلامية الأصلية .

فى حجة الوداع

فى السنة العاشرة للهجرة وقد دار الفلك دورته قبل شهر ذى القعدة نادى منادى رسول الله ﷺ فى المسلمين أن يجهزوا أنفسهم لحج بيت الله الحرام مع رسول الله ﷺ فقد عزم الرسول أمره على أن يؤدى بالمسلمين فريضة الحج ليأخذوا عنه المناسك فهو إمام المسلمين وقدوتهم (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) واجتمع الألوف المؤلفة من المسلمين وقدموا من الصحارى والبوادى وضربوا خيامهم حول المدينة استعداداً للرحيل إلى بيت الله الحرام وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة سار الرسول ﷺ ومعه نساؤه كلهن ومائة ألف أو يزيدون من المسلمين ميممين شطر المسجد الحرام بمكة المكرمة ليطوفوا بالبيت ويقفوا بعرفات ويؤدوا مع الرسول ﷺ هذه الفريضة الجامعة فيعرفوا منه صلوات الله وسلامه عليه المناسك الصحيحة وهو القائل صلوات الله عليه :

خذوا عنى مناسككم ، وبلغ الرسول والحجيج معه مكة المكرمة فى اليوم الرابع من ذى الحجة وأدوا جميعاً مناسك العمرة ، ويقف الرسول ﷺ محرماً لأداء مناسك الحج ، وفى يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة ذهب الرسول والمسلمون معه إلى منى فقضوا فيها ليلتهم حتى مطلع الفجر فصلى الرسول الفجر وركب ناقته القصواء حين بزغت الشمس ويمم بها جبل عرفات والمسلمون من ورائه وارتقى الرسول الجبل وألوف المسلمين محيطين به ، بين مُلَبٍّ ومُكَبِّرٍ ، وضربت

للرسول قبة بنمرة ، ولما زالت الشمس يوم عرفات يوم الحج الأكبر ركب ﷺ ناقته وسار بها حتى أتى بطن الوادى ونادى فى الناس بصوت جهورى وهو على ناقته وكان يردد الصوت من بعد ربيعة بن خلف ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه خطب فى الناس خطبته الجامعة التى وضع بها القواعد والأسس لهذا الدين القويم وأكد الحلال والحرام ، وبين الحقوق والواجبات .

فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه وكل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه ، وأن الرّبا كله باطل قليله وكثيره سواء ، وأن للمرأة على الرجل حقوقاً وللرجل عليها حقوقاً ونبه المسلمين إلى أن ما فيه عز الدنيا والآخرة لكم هو كتاب الله وسنة رسوله ، فإذا انحرفوا عنها فذلك هو الضلال البعيد وها هى ذى خطبته ﷺ :

قال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس : اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

« أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت .

« فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع - أى مهدر - ولكن لكم أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .

« قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

« وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب . أما بعد أيها الناس : فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

« أيها الناس : إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحله الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها : أربعة حُرم ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

« أما بعد : أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقًّا ، لكم عليهم ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهنَّ فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح .

« فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

« فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً أمراً بيّناً : كتاب الله وسنة رسوله .

« أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمون أن كل مسلم أخٌ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه « فلا تظلمن أنفسكم » .

اللهم هل بلغت :

فأجاب الناس من كل صَوْت : نعم : فقال اللهم فاشهد » .

هذه هى خطبة الوداع وسميت بذلك لأن الرسول ﷺ ودع الدنيا وذهب إلى الرفيق الأعلى بعد أداء مناسك الحج والذهاب إلى المدينة بقليل .

وكان أسلوبه ﷺ فيها أسلوب مودع ، كقوله : اسمعوا واعقلوا فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى هذا الموقف أبداً – ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

وقد حدث أنه ﷺ بعد الخطبة نزل عن ناقته وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم ركبها وسار حتى الصحراء ، وهناء تلا على الناس قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) . فلما سمعها صاحبه الصّدّيق أبو بكر رضى الله عنه بكى ، إذ أحس أن النبى ﷺ وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذى يلقى فيه ربه .

وكما سميت الخطبة خطبة الوداع فقد سميت الحجة كذلك حجة الوداع ، كما سميت حجة البلاغ ، لأن النبى ﷺ أتمَّ فيها بلاغه للناس بما أمره الله ببلاغه .

وبعد قليل من عودته ﷺ إلى المدينة المنورة بعد أن أتمّ مناسك الحج دهمه ﷺ مرض الحمى ، وعافى منه صلوات الله وسلامه عليه ما عافى ، وخُيّر الرسول ﷺ بين مفاتيح خزائن الدنيا أو الخلد فيها ثم الجنة وبين لقاء ربه والجنة فاختار لقاء ربه صلوات الله وسلامه عليه ..

فى معجزات النبىِّ غير القرآن

لكل نبىٍّ معجزات . فهل لرسول الله ﷺ معجزات غير القرآن ، وما هى ؟

أيد الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بالمعجزات التى تدل على تصديقه سبحانه وتعالى لهم فى دعواهم ، وكأن الله سبحانه وتعالى – بهذا التأييد – يقول : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى .

وهذه المعجزات تناسب العصر الذى بعث فيه الرسول وتكون من جنس ما اشتهروا به حتى يكون عجزهم عن معارضته دليلا على أنها من صنع الله وليست من صنع البشر.

ولما كان العرب أهل فصاحة وبلاغة كانت أعظم معجزة للرسول ﷺ القرآن المنزل باللفظ العربى الذى أعجزهم ببلاغته ، فلم يستطيعوا معارضته أو الإتيان بشىء من مثله وهو المعجزة الخالدة .

ولنبينا ﷺ معجزات كثيرة حسية أظهرها الله على يديه وشاهدها الحاضرون ، ولقد تحدث القرآن عن بعضها وذكرت السنة بعضاً آخر منها .

فتحدث القرآن عن معجزة الإسراء والمعراج . قال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) وقوله تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى) فالآية الأولى تذكر حادثة الإسراء والثانية تشير إلى المعراج .

وفى السنة الكثير من الأحاديث التى تتحدث عن معجزاته عليه السلام ومنها مثلا نبع الماء من بين أصابعه الشريفة .

ولقد أفرد بعض المؤلفين مؤلفات فى معجزاته عليه الصلاة والسلام .

فى كيف كان بدء الوحى ؟

إن الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها وفيه بعض سيرة النبى ﷺ وصفاته فى مطلع نزول الوحى عليه : هو حديث بدء الوحى .

وهذا الحديث وثيقة هى من الأهمية بحيث لايوجد ما يماثلها فى الأدب العالمى ، وأهميتها ترجع إلى وصفها للكيفية التى أتى بها -- أول ما أتى الوحى . وإن الإنسان حينما يقرؤها يلمس فيها مباشرة صدق الحديث ، وسهولة التعبير ، وتصويرًا للحقائق لايجد الشك إليه سبيلا .

ومن المعروف أن السيدة عائشة تروى فى هذا الحديث ماعلمته علمًا يقينيًّا من الملابسات والظروف والأخبار الصادقة والروايات الصحيحة ومن حديث رسول الله ﷺ لها مباشرة .

ويمكننا أن نذكر ماتحدثت به عن سيرة النبى ﷺ فيما يلى بحسب الترتيب الذى ورد فى الحديث .

١ – لقد أخذ رسول الله ﷺ يرى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

٢ – وعند ذلك حبب إليه الخلاء ، فكان يذهب إلى مشارف مكة ، بعيدًا عن ضجيج

المدينة وصخبها ومشاغلها ويعتكف فى غار حراء « فيتحنث فيه » وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن يترع إلى أهله ويتزود لذلك « أى يأخذ الزاد للاعتكاف من جديد » ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء .

٣ – ولما جاء الملك فى الغار وحدث ماحدث بينهما خرج من الغار يرجف فؤاده ، وبعد أن أخبر السيدة خديجة بالأمر قال لها :

« لقد خشيت على نفسى » .

فقالت السيدة خديجة واصفة سيرة النبى فى دقة دقيقة ، سيرته التى كان عليها فى مطلع الوحى ، وكان عليها طيلة حياته ، سيرته التى كانت متناسقة مع بواعث رسالته وأهدافها ، تلك البواعث والأهداف التى قال عنها سبحانه وتعالى (ومأأرسلناك إلا رحمة للعالمين . . . .) قالت السيدة خديجة ردًّا على قوله « لقد خشيت على نفسى « كلا والله مايخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المُعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » وهذه الصفات التى وصفته بها السيدة خديجة والتى روتها السيدة عائشة فى الحديث الشريف الذى رواه البخارى ، إنما هى عبارة عن الرحمة .

ولقد كانت سيرة النبى – ﷺ – رحمة كلها ، وهو القائل :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

وهو القائل :

« أنا نبىّ الرحمة » .

فى حياة الشباب لرسول الله ﷺ

لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه شرحًا مستفيضًا وتوضيحًا كاملا ، وتعبيرًا تامًّا لما ذكره ابن خلدون ومايتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة من أن ذلك من علامات الأنبياء :

« أنه يوجد لهم قبل الوحى ، خلق الخير والذكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع . وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافية لجبلّته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه مبينة لهذه القاعدة فيقول :

« وفى الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره فانكشف . فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره .

ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب : فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئًا من شأنهم » .

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم . وزكى لأنه بعيد عن الشرك لم يسجد لصنم قط صلوات الله عليه وسلامه .

فى الرسول يعمل كما يعمل سائر الناس .

عاش الرسول ﷺ حياته الكريمة بكل ماتقتضيه هذه الحياة من حركة وسعى وعمل فى كل المجالات المطلوبة . . . لقد رعى الغنم واشتغل بالتجارة قبل البعثة . . . وكان القائد السياسى والحربى للمسلمين بعد البعثة .

وتطلبت هذه الحياة العريضة التنقل فيما بين أرجاء الجزيرة العربية فتنقل فيها بل تجاوزها إلى غيرها كبلاد الشام ، واستخدم فى تنقلاته وسائل المواصلات المطلوبة والميسورة فى وقته وفى ظروفه . . . فاستعمل فى ركوبه الخيل والإبل والحمير . .

وقد حفظت لنا كتب السنة والسيرة أوصافًا لما كان يستخدمه ﷺ فى ركوبه وأسفاره بل أسماء لها .

ولكنه ﷺ لم يحتج فى حياته الكريمة إلى ركوب سفينة أو اجتياز بحر .

ومع ذلك فقد كان عارفًا بالبحر وبما وراء البحر . لقد سمع بعدالة ملك الحبشة النجاشى قبل الهجرة . . فوجه أتباعه إليه فرارًا من ظلم المشركين واستبدادهم . . . وركبوا البحر من شواطئ الجزيرة العربية إلى الحبشة وعادوا بعد تلك الهجرة مجتازين له .

وبشر أمته بأن منهم من سيركب البحر مجاهدًا فى سبيل الله وسيغزو من وراءه .

إن عدم ركوبه ﷺ سفينة أو نزوله البحر أمر عادى اقتضته ظروف حياته وأحوال بيئته لاصلة له بتشريع ولاعلاقة له بالنبوة .

ومما يتصل بهذا المجال ، حكى أن بحارًا أوربيًّا قرأ فيما تُرجم من القرآن قوله تعالى : (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) .

فسأل : أكان هذا بحارًا يجتاز البحار ويتنقل بين أرجائها ؟ فقيل له بأنه لم يركب البحر فى حياته . . . . فقال : إن هذا الوصف لايصفه بهذه الدقة والبراعة إلا من شاهده وعاش فيه . . . . فقيل له : إن القرآن ليس من عنده إنه من عند الله -- فآمن وكان ذلك سببًا فى إسلامه .

فى أبرز صفات الرسول الخالدة

إن من أبرز صفات الرسول ﷺ الخالدة ، والتى تشع النور ، وتعطى القدوة الحسنة على مر العصور ، والتى نحتاج إلى التركيز عليها فى حياتنا الحاضرة : صفة الجهاد .

إن رسول الله ﷺ الذى كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه ، والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام . . هو الذى يقول :

« والذى نفس محمد بيده : لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وهو القائل :

« من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » إن النبى العابد – هو النبى المكافح . . . وإن نبى الرحمة هو نبى الجهاد . . وما كان الجهاد قط فى الإسلام إلا فى سبيل الله . . فإذا ماخرج عن سبيل الله ، لم يكن إسلاميًا ، وكل مافى سبيل الله إنما هو رحمة . .

وأول ملاحظة : هى أن الرسول العابد ، لم يتراجع فى غزوة قط . وكان الأبطال يتراجعون ، والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحيانًا . ولكنه صلوات الله وسلامه عليه ، فى ما يقوله سيدنا على ، وهو من هو بطولة وفروسية :

« كنا إذا حمى الوطيس – أى الحرب – اتقينا برسول الله ﷺ : أى احتمينا به وفيه – فيكون أقربنا إلى العدو » . .

وكان صلوات الله وسلامه عليه – مع التجائه إلى الله تعالى ، يدعوه ويستغيث به ، ويستنجزه وعده بالنصر – يحكم الأمر إحكامًا بحيث لايدع فيه ثغرة . .

هكذا كان أمره فى جميع أموره :

لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيمًا محكمًا ، ثم اتجه إلى الله يدعوه وكان دائمًا متفائلا . . كان متفائلا حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين . .

لقد كان المشركون فى غزوة بدر ، ثلاثة أمثال المسلمين . . فهزمهم المسلمون بإذن الله . .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد ، شذوذًا فى القاعدة . . وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا – متأولين – أوامر الرسول ﷺ غير أن تفاؤله صلوات الله عليه وسلامه : لم يفارقه لحظة . . إذ إنه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد مباشرة . . أمرهم صلوات الله وسلامه عليه ، بلم شعثهم وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورًا لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه . . أنه فى غزوة الأحزاب وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة . . يسانده اليهود والغادرون ليقضوا على الإسلام فى المدينة . . ليقضوا عليه دينًا ، وليقضوا عليه دولة . . ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالا . . وقد كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق حماية لهم ومنعًا من وصول العدو إليهم .

وفى هذه اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب رضى الله عنه القصة التالية : حسبما رواه الإمام أحمد :

« أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق لاتأخذ فيها المعاول . . فشكونا إلى رسول الله ﷺ ، فجاء . . ثم هبط إلى الصخرة . . فأخذ المعول وقال : باسم الله . . فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال : والله أكبر . . أعطيت مفاتيح الشام – والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا . . ثم قال : باسم الله ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر . . أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا . . ثم قال : باسم الله وضرب ضَربة أخرى فقلع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر . . أعطيت مفاتيح اليمن . . والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا » .

وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان فى المسلمين ، وإن كان قد دعا إلى السخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا إن محمدًا يعدهم ويمنيهم ، وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن . .

هذا التفاؤل ، وهذه الثقة فى الله ، لم تفارق الرسول قط فى كفاحه الطويل الدائب ، الذى استمر إلى نهاية حياته الشريفة . .

فى عرض الرسول نفسه على قبائل العرب

عرض المشركون على رسول الله ﷺ من الأموال والجاه ما يغرى غير النبى ﷺ بقبوله وترك مايدعو إليه ، ولكن رسول الله ﷺ لم يكن ليدع ماأرسل به إلى الناس لدنيا لابقاء لها ، لأن الله

ثبته بالقول الثابت والله أعلم حيث يجعل رسالته فى الذين لا يخالفون عن أمره من صفوة عباده .

لو أن رسول الله ﷺ استجاب لمشركى مكة وركن إليهم قليلا بالكف عن تسفيه أحلامهم وسب آلهتهم فى تبليغ رسالة ربه لكان مقرًّا لهم ، والمقر لأحد على فعل معصية يعتبر شريكًا له فى فعلها ومجزيًا بإثمها .

وحاش رسول الله ﷺ أن يقر أحدًا على معصية ، أو يركن إليه أو يدع ما أرسل به إلى العرب وقوله تعالى : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض . . .) بيان لشدة تمسك رسول الله ﷺ بما أوحى به الله إليه . .

فى عدد الغزوات التى قام بها النبى

عدد الغزوات التى غزاها الرسول ﷺ تسع عشرة غزوة وقيل إنها إحدى وعشرون ، عن أبى إسحاق قال : كنت إلى جنب زيد بن أرقم فقيل له كم غزا النبى ﷺ من غزوة قال تسع عشرة ، قيل كم غزوت أنت معه قال : سبع عشرة قلت : فأيهم كانت أوّل ؟ قال العشيرة أو العشيرُ فذكرتُ لقتَادَةَ قال العشيرة وروى عن جابر أن عددها إحدى وعشرون ففات زيد بن أرقم ذكر ستين ، ولعلها الأبواء وبواط .

وأشد الغزوات هولا غزوة أحد ، لأن هذه الغزوة فيها انتصر المسلمون أولاً ثم أخذوا فى تقسيم الغنائم وجمعها ، فاستغل الفرصة المشركون وانهالوا عليهم كالسيل الجارف ثم رأى المسلمون أن الهول الذى وقع عليهم لا يمكن صده فانسحبوا وولوا الأدبار حينئذ أصيب ﷺ وشُقَّتْ رباعيته ولم يكن معه إلا أبو بكر وعدد قليل من الصحابة ، وشاع الخبر أن محمدًا قُتل ، فاشتد الهول على المسلمين والخوف وكادت نفوسهم أن تضيق بها الأمكنة . .

فى الإسلام حمل السيف دفاعًا عن حريته وعقيدته

بدأ رسول الله ﷺ الدعوة إلى التوحيد فى مجتمع لا يدين بالتوحيد ، وأخذ صلوات الله عليه طيلة الفترة المكية ، يبين الدعوة بالقرآن ، وبالأحاديث ، وبالسلوك المستقيم ، وفى هذه الفترة المكية كلها : لم يرفع الرسول صلوات الله عليه سيفًا ، ولم يقم حربًا ، وكان أعداء الحق يعذبون المسلمين ، وينكلون بهم ، ويحاولون قتل رجال لأنهم يقولون : ربنا الله .

وانتهى التعذيب إلى غايات أليمة : فأخرج الذين يقولون : ربنا الله من ديارهم ، وشتتوا من أوطانهم ، فكانوا المهاجرين : هاجروا إلى الحبشة أولا ، ثم هاجروا إلى المدينة .

ولكن الكفر لم يكتف بذلك ، فأراد أن يقضى على الإسلام فى المدينة ، وكان من توفيق الله : أن وجد فى هذه الفترة من المؤمنين من أمكنهم أن يردوا هجمات الشرك والكفر : فحملوا السيف دفاعًا عن أنفسهم وأوطانهم ولقد ألجأهم الشرك مرة إلى أن يحفروا حول مدينتهم خندقًا عميقًا ، حينما جاء أعداء الله آلافًا مؤلفة ، ليقضوا على المؤمنين فى ضربة واحدة وفى صورة حاسمة ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم .

والتاريخ إذن : يرينا – فى صورة لامرية فيها – أن الإسلام لم يحمل السيف طيلة الفترة المكية ، وقد كان ينتشر بالدعوة إليه . ثم حمل السيف دفاعًا فى أوائل الفترة المدنية ، وكان ينتشر بالدعوة إليه ، ثم لما انتشر الإسلام بالدعوة السلمية انتشارًا واسعًا ، وأصبح قوة لها شأنها ولها خطرها ، رأى المؤمنون بها أن إيمانهم بالحق لايكون كاملا إلا إذا فتحت أبواب الدعوة إلى هذا الحق فى كل مكان ، ولما كان الطغاة والمستبدون يقفون فى وجه الحق ، ويتكبرون على الهداية ، رأى المؤمنون بالحق : أنه لابد من تحرير الشعوب من طغيان الطغاة واستبداد المستبدين ، حتى يمكن بيان الحق والدعوة إليه ، فحملوا السيف تحريرًا للشعوب وفتحًا للأبواب التى أغلقها الملوك المستبدون فى وجه الدعوة إلى الله ، وليس فى تاريخ الإسلام كله حادثة واحدة تدل على أن المسلمين أجبروا شخصًا على اعتناق الإسلام ، بل كان الأمر بالعكس لبعض الولاة ، كان يضيق ذرعًا بكثرة اعتناق الناس الإسلام بالرغم مما يعمله للحد من ذلك . إن الاسلام انتشر فى كل مكان أشرق نوره فيه لأنه حق واضح ، ولأنه رحمة للعالمين .

فى رسائل النبى إلى الأمراء والملوك

كان رسول الله ﷺ ، يبعث الرسائل إلى ملوك الدول يدعوهم إلى الإسلام ، ومن هذا القبيل رسالته ، ﷺ التى بعث بها دِحْية إلى هرقل : بدأت هذه الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم » ، وهى آية من القرآن ، وبعد أن دعا الرسول : ﷺ : هرقل إلى الإسلام كتب ﷺ فى رسالته :

(يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئًا ولايتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

هذه الرسالة إلى هرقل رواها الإمام البخارى ورواها الإمام مسلم .

فهى إذن ثابتة وهى تشتمل على بعض القرآن ، وهى مرسلة إلى النصارى .

والذى أرسلها هو الرسول ، ﷺ ومن المعلوم ، ومن المتيقن لدى رسول الله ﷺ ، أنهم سيمسون الرسالة ، ولو كان مسها حرامًا لاشتمالها على القرآن لما كتب الرسول ، ﷺ فيها قرآنا ، وهذا هو مارآه الإمام داود الظاهرى ، والإمام ابن حزم .

هذا ومما يبيح أن يحمل القرآن من هم على غير دين الإسلام ، أنه من المحتمل أنهم يقرءون فيه فيهتدون .

أما إذا تضمن حمل غير المسلم للمصحف إهانة لكلام الله فإنه يحرم على المسلمين أن يكونوا وسيلة أو وساطة لتمكين غير المسلمين من حمله .

هذا وعلى المسلمين أن يهدوا إلى كتاب الله بكل وسيلة كريمة تيسر اهتداء الناس إلى الحق ، وقد يكون من ذلك تمكين غير المسلم من الاطلاع على القرآن .

لايلزم من رواية ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كتب إلى هرقل أن يكون كتب بنفسه ، فقد كان له كتاب للوحى . وكان الكتبة يكتبون ما يأمرهم بكتابته .

وقد كان الرسول ﷺ أميًّا قبل الرسالة قال تعالى : (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون) .

ولم يرد مايفيد تعلمه ﷺ الكتاب بعد الرسالة . وورد فى الآيات والأحاديث الصحيحة مايفيد أميّة الرسول ﷺ ، قال تعالى :

(ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبىَّ الأمىَّ الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل) .

وقال تعالى :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) .

وأميّة الرسول ﷺ معجزة من أبلغ المعجزات دلالة على صدق الرسول ﷺ فى رسالته ، ورد كل ما ادعاه المشركون من تلقيه ﷺ عن أهل الكتاب ونحو ذلك .

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

ولأجل ذلك أمر الرسول ﷺ للقضاء على الأمية بين المسلمين بتعليم القراءة والكتابة ، وكان له كتّاب للوحى ولغير الوحى كالرسائل ونحوها . . .

وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ كلها داعية للعلم بشتى ألوانه وحاثة على سلوك طرق التعلم والتعليم .

زواج الرسول كان لمصلحة الرسالة

الذى نعرفه أن زواجه ﷺ كان مسايرًا للحكمة والمصلحة لا للعواطف ، فقد قضى ﷺ أول شبابه ولم يهتم بالزواج حتى فتح الله له ويسر له أمره وسخر أم المؤمنين خديجة وهى فى مثل سن والدته ، وقد كان يعمل فى مالها تجارة من قبل عرف عنه فيها الأمانة والبركة فعرضت عليه نفسها فتزوجها واقتصر عليها طول حياتها ، وأعقب منها ذريته كلها إلا إبراهيم فإنه من مارية الجارية القبطية التى ملكتها يمينه لما أهداها إليه المقوقس عظيم القبط . . فلما ماتت السيدة خديجة وعمره خمسون أو فوقها لم يعمد إلى زواج شابة مثلا بل تزوج كبيرة فى السن هى السيدة سودة بنت زمعة بهدف أن ترعى أولاده . وقد عقد على السيدة عائشة بمكة وكانت بنت تسع سنين إكرامًا لأبيها أول المؤمنين به وأصدقهم صحبة له ، وبعد الهجرة إذ كانت بنت تسع سنين دخل بها . ومابنت سبع سنين ولاتسع بمحركة للعاطفة عند النبى الرزين المكين – تزوج سيدتنا أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان وقد كانت آمنت به وهاجرت إلى الحبشة فى سبيل الله . . فهل يتركها بعد ماعادت دون زوج لأبيها مثلا ، وقد كان عدوًا محاربًا له ، أو يتخذها زوجة له صيانة لها ومد يد نحو السلم تألفًا للقلوب ؟ كما زوجه الله بنت عمته السيدة زينب بنت جحش الذى كان زوجها لزيد بن حارثة ، لقد تزوجها ﷺ بعد ماطلقها من زيد بن حارثة الذى كان النبى ﷺ قد تبناه لاختياره الله ورسوله على أبيه وأهله وعشيرته وزوجه زينب بنت عمته لحكمة أرادها الله تعالى هى هدم عادة التبنى بعد ما كان يفعلها أهل الجاهلية بأن زوج نبيه امرأة زيد التى طلقها وقد كان النبى يخالطه شىء من الحياء قبل نفاذ الأمر ولكنه السميع المطيع لأمر الله فمادام منفذًا له فلا عليه من قالة الناس ، والله أحق أن يخشاه وقد كان أول من يخشى الله ويطيعه فلا يتأخر عن تنفيذ ما يأمر به أما قوله : هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك فلا يدل على أن الزواج نبع للعاطفة بل اعتذار عن ميل القلب بحكم البشرية فى المخالطة والمباشرة مثلا إلى بعض الأطراف أكثر من غيره وذلك طبعى لاحرج فيه مالم يحمل على ظلم أو بغى وذلك لم يحصل ، إذ قال ﷺ هذا قسمى أى بالعدل فيما أملك أى من التصرفات ، أما الذى لا أملك أنا بل تملكه أنت – من جعل بعض الأشياء والأشخاص أحب إلىّ من غيرها – فلا مؤاخذة فيه مادام العمل فى الحق لاعلى الهوى . .

عن لقب أمهات المؤمنين
وعن طلاق الرسول وعن كونه نبى أميّ

إنما سميت السيدة عائشة وسائر أزواج النبى ﷺ أمهات المؤمنين إجلالا واحترامًا ومنعًا من زواجهن من بعده ﷺ كما يتأدب المرء مع أمه .

هل طلق النبى ﷺ ؟ نعم : حملت إليه امرأة فى عرسها فلما دخل عليها كان بعض النسوة قد خدعنها وقلن لها : إذا أراد منك شيئًا فقولى أعوذ بالله منك . فلما قالت ذلك أجابها قائلا : عذت بمعاذ الحق بأهلك أى أنك استغثت بغياث عظيم هو الله فارجعى إلى أهلك فإنك مطلقة والحق بأهلك عند العرب عبارة تفيد ذلك . .

هذه واحدة . كما رووا أنه طلق السيدة حفصة بنت سيدنا عمر رضى الله عنه فأوحى الله إليه أن يراجع حفصة فإنها صوامة وقوامة وإنها من نسائه فى الجنة .

لقد بقى ﷺ فيما نعلم أميًّا طول حياته المباركة حتى بعد نزول القرآن الكريم ، فقد كان له كتبة يسجلون الوحى بالقرآن كما نزل عليه . .

فى مظاهر الرحمة فى سلوك الرسول

إن سلوك الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان الرحمة نفسها ، ولقد وصفته السيدة خديجة رضوان الله عليها فقالت : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وهذه الصفات كلها : تتبلور فى كلمة واحدة هى الرحمة .

وفى يوم من الأيام ، رأى أحد الأعراب رسول الله ﷺ : يقبل أحد أحفاده ، فقال ، مندهشًا : أتقبلون أبناءكم ؟ إن لى عشرة من الأولاد وما قبلت واحدًا منهم قطّ ، فعرّفه صلوات الله عليه وسلامه فى نوع من الاستهجان . أن الله قد نزع الرحمة من قلبه ولقد تعدت رحمته ﷺ الإنسان إلى الحيوان ، وكتب السيرة تروى أنه صلوات الله عليه وسلامه : مرّ ذات يوم على بستان رجل من الأنصار فدخله ، فإذا جمل يحن وتذرف عيناه ، فأتاه النبى صلوات الله عليه وسلامه فمسح عليه ، فسكت ثم قال صلوات الله عليه : من رب هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار : فقال هذا لى يارسول الله ، فقال له : ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله ، إنك

تجيعه وتدئبه (أى تتعبه وتجهده) فخجل الشاب الأنصارى وتغير سلوكه مع الجمل وتذكرنا هذه القصة بما قصه صلوات الله عليه من قصة ذلك الرجل الذى وجد كلبًا يلهث من شدة العطش ، فملأ خفّه وسقاه فغفر الله له بسبب ذلك .

فى الإسراء والمعراج

ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين إلى أن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسد النبى ﷺ وروحه بعد البعثة . . .

ولقد توارد على ذلك – كما يقول الإمام ابن حجر – ظواهر الأخبار الصحيحة ولاينبغى العدول عن ذلك ، إذ ليس فى العقل مايحيله حتى يحتاج إلى التأويل .

ولو كان ذلك منامًا أو بالروح فقط لما كذب رسول الله ﷺ مكذب لجواز وقوع مثل ذلك لآحاد الناس :

إن الناس فى الرؤيا يرون أنهم سافروا ، وأبعدوا وذهبوا وجاءوا وعقدوا العقود ورأوا نتائج عقودهم وثمار عهودهم ، فلو كنا بصدد رؤيا لما ارتاب فى صدق الصادق الصدوق صلوات الله وسلامه عليه إنسان . . . ولما أشفقت السيدة أم هانى رضى الله عنها على رسول الله ﷺ حين أخبرها الخبر وقال إنه سيحدث الناس به فأرادت منه أن يعدل عن ذلك قائلة :

« إنهم سيكذبونك فلم يستجب صلوات الله وسلامه بنصيحتها لأن الحق ينبغى أن يُذاع وأذاعه ﷺ بين الناس .

– ماهو إذن الموقف الذى ينبغى أن يتخذه من هذا الموضوع ؟

إن موقف المؤمن الصادق فى ذلك إنما هو موقف سيدنا أبى بكر :

فعن عائشة رضى الله عنها أنه سعى رجال من المشركين إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس – فقال أوقد كان ذلك ؟ . . . .

قالوا : نعم . . .

قال : لئن قال ذلك فقد صدق . . قالوا تصدقه إنه قد ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ . . قال نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة فلذلك سمى الصّدّيق . .

لقد كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، خاتمة سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله إلى العالم بين

الفينة والفينة ، لتهدى إلى الرشاد ، ولتقود إلى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ، لتصل بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو ، عن طريق الإرشاد الإلٰهى وكان الكتاب الذى أنزل عليه ، صلوات الله عليه ، وهو القرآن : خاتم الكتب ، وأكملها ومهيمنًا عليها .

ولأن الرسول – صلوات الله عليه – تخلق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو إذن أكمل رسول ، ﷺ .

ومن هنا كانت إمامته – صلوات الله عليه – بالرسل والأنبياء فى بيت الله المقدس ، ولأنه صلوات الله عليه ، أكمل رسول ، كان من أجل ذلك ، أقرب المقربين إلى الله ، سبحانه وتعالى ، لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل إلى مالم يصل إليه بشر ، بل إلى مالم يصل إليه جبريل نفسه عليه السلام ، لقد وصل صلوات الله عليه إلى (قاب قوسين أو أدنى) وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج : من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول صلوات الله عليه أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحدًا بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ معنى مكانى ، فإنه أيضًا – بل بطريق أولى – معنى روحى ، أى أن الرسول صلوات الله عليه فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى معراجه إلى درجات تجاوزت – فى روحانيتها – آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى عليهما السلام ، فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة . . . . وهكذا حتى تجاوزت روحيًّا إبراهيم عليه السلام ، فى سمائه السابعة ، ولقد تجاوزت كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لايبلغ ملك مقرب ، ولانبى مرسل . .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله عليه ! !

ولكن بعض الناس ، ينزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات السامية .

ومن الرحاب الإلٰهى . . . ينزل بنا منحدرًا ، فيجادل فى الإسراء والمعراج ، أكان رؤيا أم كان يقظة . . . .

أستغفر الله ، وأتوب إليه ! !

إن ذلك الجدل ، إذا دل على شىء ، فإنما يدل على ضعف الإيمان فى قلب المجادل .

وإذا كان ماسبق يدلنا على جانب من مقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فتزداد بذلك تقديرًا ، وحبًّا واتباعًا ، فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته فى نبأ الإسراء والمعراج هذه الرمزيات الأخلاقية ، التى تربط ربطًا محكمًا ، بين الدين والأخلاق . .

والواقع أن الأخلاق فى جو الإسلام مرتبطة بالدين ارتباطًا ، لاينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ، إنها جزء من الدين الإسلامى ، لايتجزأ ، مصدرها هو مصدره ، إلهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين فالضمير يربى ويكون ، وتربيته ولونه ، هما شكله ، ونزعته واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة والعصر والوسط . .

فى الحكمة من الإسراء والمعراج

إنها ليست حكمة واحدة وإنها هى عدة حكم منها : أنه كان تكريمًا للرسول ﷺ فى وقت استحكم فيه الجهاد بين قوى الخير ممثلة فى الرسول وأتباعه ، وقوى الشر ممثلة فى المشركين يتزعمهم أبو جهل ، وكانت قوى الشر فى عنفوانها على قوى الخير فجاءت معجزة الإسراء والمعراج مبينة مكانة الرسول ﷺ ، وأظهرت أن مقامه صلوات الله عليه وسلامه عليه : قاب قوسين أو أدنى فى القرب من الله سبحانه .

ومن حكم معجزة الإسراء والمعراج أنها كانت تصفية لضعاف النفوس والشاكين والمترددين ، لقد كانت نفيًا لهم عن الجماعة الإسلامية الناشئة إذ إنهم لو مكثوا فيها لكانوا ضررًا عليها ، ولئن كانت معجزة الإسراء والمعراج تكريمًا للرسول ﷺ فإنها كانت ابتلاء للجماعة الإسلامية ليميز الله الخبيث من الطيب ، وليذهب الزبد جفاء .

وتخلصت بذلك الجماعة الإسلامية الناشئة من الضعاف والشاكين والمترددين .

ومن الحكم بيان أن القيادة فى بيت المقدس يجب أن تكون للمسلمين وهذا هو المعنى الذى يؤخذ من إمامة رسول الله ﷺ للأنبياء والرسل ، إن الإمامة فى بيت المقدس وإن الكلمة الأولى والقيادة يجب أن تكون للمسلمين دون غيرهم ، فإذا قصروا فيها فهم آثمون أفرادًا ، وهم آثمون جماعات ، وهم آثمون دولا وحكومات .

ومن هذه الحكم مانبهت عليه المشاهدة الأولى فى مرحلة الإسراء المباركة لقد كان أول ماشاهد رسول الله ﷺ مشهد هؤلاء الذين يزرعون ويحصدون فى يوم ولما سأل عنهم قيل إنهم المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنات إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

والجهاد هو وسيلة الحصول إلى القيادة فى بيت المقدس .

أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إن روح سيدنا عمر وروح صلاح الدين من وراء الأجيال تناديكم لإنقاذ بيت المقدس مرددة قول الله تعالى :

(انفروا خفافًا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) .

ومرددة قوله تعالى : (إلاّ تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولاتضرّوه شيئًا ، والله على كل شىء قدير) .